

الإنسان بين الفريجة والمطاردة

بقلم محمد محمود عبدالرازق

كان يبدو وجه الشاب كما لو كان يضحك . انتقل لهيب الشمس الى وجنتي ميرسول وتجمعت قطرات العرق عند اهتداب عينيه . سحب الشاب مديته من غير ان ينهض ولوح بها في الشمس . انفجر الضوء على الصلب الذي بدأ كسلاح طويل يراق خيل له انه اصابه في جبهته . سال العرق دفعة واحدة على جفونه وغطساها بستار دافئ كثيف . فقدت عيناه الرؤيا خلف ستار من الملح والدموع . لم يعد يحس الا بدقات الشمس على جبهته وبالسيف البازغ من السكين المسلط امام وجهه . كان هذا السيف الحارق ياكل اهدابه ويفقا عينيه وكل شيء امامه يترنج . نفت البحر كتلة الهواء سمكة وحارة . بدا كما لو كانت السماء قد فتحت بكل طولها وعرضها لتمطر لها يؤثر على كيانه كله . تقلصت يده على المسدس واستجاب الزناد للضغط وبدات الماساة . فهم انه دمر توازن اليوم والسكون الرائع للبلج الذي كان سعيدا به .

هل يصدق قضائه هذا السبب؟! .. القاعة كلها تضج بالضحك . ويقضي القضاة باعدامه لانه وضع امه في ملجأ عجزه ، ولم يبك يسوم وفاتها ، وذهب غداة ذلك اليوم الى البلج ، وبدأ علاقة غير مشروعة مع فتاة اصطحبها لمشاهدة فيلم هزلي لفرنانديل ، وانشأ علاقة اخرى مع قواد . وذلك بعد ان البسوا هذه السواقع اردية ليست لها ، حاكها المدمي العام ذو الخيال الخصب بتصوره الخاص .

اذا ما انتقلنا الى قصة « القضية » لزهير الشايب فسوف نواجه بميرسول آخر ذي ملامح مصرية خالصة يعنى « يوسف » . ويذكرنا هذا الاسم بادعاء امرأة العزيز الذي اودع يوسف بسببه السجن ، لكن يوسف النبي وجد من ينه قضائه الى قد انقيص ، والفرق بين قده من دبر وقده من قبل . اما نبي هذا العصر الذي يحاكم دوما عن جرائم لم يرتكبها فلا عاصم له . وكلما حاول بكل طاقات البراءة فيه ايضاح الحقيقة انكرها قضائه لان في انكارها قضاء لصالحهم . ان المحرك الاول لهم هو المصلحة الشخصية . وهذا ما يجعلهم يتهمون الابراء ، وهم يعتقدون انهم قد وضعوا ايديهم على عتاة المجرمين . ان السلطة هنا تبحث عن عصابة تزيف النقود . وهي في سعيها تزج بمديد الابراء في السجن ، وتجبرهم تحت وطأة الارهاب والتعذيب الجسماني والنفسي على الاعتراف بجريمة لم يترفوها . كل هذا لا للبحث عن الحقيقة ، وانما - كما تقول القصة - سعي وراء المكافاة الكبيرة والترقية التي اسالت لعاب كل من اشتركوا في المطاردة من المخبرين الى الضباط . هذا هو العامل النفسي الذي يحركهم جميعا

حينما كانت الاحذية النازية تدنس ارض فرنسا ، وبينان العجوز يقف على راس حكومة فيشي الخائنة ، والفتيات الصغيرات يبعسن اعراضهن مقابل كسرة من الخبز او شريحة من الزبد او قطعة من السكر ، نشر انبير كامو قصة « الفريج » . ونحن لا يهمنا هنا مسيرة «ميرسول» الكاملة : هذه الروح الرقيقة الخجولة المجاملة ، التي ارفقها الملل ، واضناها الضياع ، واضاعها العبث ، رغم محاولاتها المتعددة لاقتناص اللحظات السعيدة العابرة . ما يهمنا هنا - على وجه الخصوص - هو سيطرة المؤسسات التي ابتدعها الانسان لحيمايته على مفدراته حتى غدت سجنه لا بيته . الهوة تعميقة الرهيبة التي تفصل بين الصحة المطلوبة باثبات براءتها ، وجزاؤها الذي يرتدي مسوح الرهبان ويمسك الميزان .

لقد ارتكب ميرسول جريمة قتل ... هذا حق . وعقوبة جريمة القتل في قانون هذه المؤسسات التي افترضت علم الكافة به ، واتفاقهم على قبوله والرضوخ له ، هي الاعدام ... هذا حق آخر .

اما الذي ليس بحق فالمسافة الشاسعة التي تفصل بين انسان ارتكب فعلا نواضنا على تجريمه ، وفهم مصدري الاحكام لظروف وبعوات ارتكاب الجرم .

الذي ليس بحق ان تتكاتف نظم هذه المؤسسات وتتفق على ادانتك لغير اسباب ارتكاب الجرم كدائك او الحادك او مصاحبك لقواد . وتصويرها لكل هذه الامور بالصورة التي يمتطهها لها شكها المفترض فيك ، وبصدا النائي عنك . ان تتوقف حيائك على بلاغة المدمي العام او اخفاق ممثل الدفاع من اللحاق بقافلة منتجي الاحكام . ان تتحول قضيتك الخاصة في ايدي قضائك الى مادة تبحث بعيدا عنك ، عليهم الانتباه منها على وجه السرعة ليتفرغوا الى ما هو اهم . ان تتدخل في عدالة الانسان مهما حسنت نيته عسوامل جوية وصحية ونفسية واجتماعية تمل عليه الحكم .

ان الباعث الحقيقي لارتكاب ميرسول لجريمته هو اصابته بضربة شمس : كانت اشعة الشمس تسقط في اتجاه راسي على الرمال فتمدها ببريق لا يكاد يحتمل تتصاعد منه حرارة تحيل التنفس الى امر مجهد للغاية ، والبحر يلهث بامواجه الصغيرة في انفاس مكتومة . نصف نائم كان يسير ، والرمل يبدو لعينيه كمرجل احمر يغطي ، والحرارة تنكئ عليه لا اعتراض طريقه الى المنبع الظليل . عند وصوله اليه فوجيء بالشاب الذي جرح صديقه بمدية منذ لحظات . ربما بسبب الظلال

وان اعتمد بعضهم انه يبحث عن الحقيقة . والحقيقة - من جهة اخرى - لا تعنيهم كثيرا ، لانهم ان يتقنوا المؤامرة حتى تبدو كالحقيقة فيصدقها الناس .

ان دليل الاتهام الاول في نظر هؤلاء القضاة هو انه اصر على اعطاء الجنيه الذي اكتسب زيفه فيما بعد للكماري وادعائه بعدم وجود غيره معه رغم انه يحول قطعة من ذات العشرة قروش . ويبرر يوسف هذا المسلك باحتفاظه بها كتذكار (لان عليها شعار مناسبة وطنية) . وكما كان ميرسول يشعر بما في موقفه من سخريه حينما سألته المحكمة عن سبب ارتدب الجريمة فخلط الكلمات فليلا وهو يقول « ان هذا كان بسبب انتمس » . فان يوسف قد « شعر بسخف الرد ، ولكن لم يجد منه مناصا » (ص ١٤٧) . انه الحقيقة .. غير ان الحقيقة ليست دائما وسيلة الافناع بظهارة الذليل ، وكما ضحكت الفاعة من ميرسول ، فان اصول المحقق قابل يوسف بسخرية لاذعة : « ماذا تقول يا اخ ؟ » (ص ١٤٧) . فهل يتخلى بنو العصر الحديث عن الصدق؟ .. ان يوسف وميرسول لم يتحليا عنه حتى في احلك المواقف .. حتى في تلك اللحظات التي يكون الكذب او التامين على كذب الاخرين فيهما او جهلهم ، هو طوق النجاة الوحيد . فعندما ضاق المدعي العام بميرسول فتح درجا في دواليب السجلات ، وأخرج منه صليبا من الفضة عليه صورة المسيح ، واخذ يلوح به تجاهه وهو يصيح : هل تعرف هذا ؟ وعندما اجابه بالنفي استبد الفضب بالمدعي العام وفاخر بان ايمانه بالله لا يتزعزع وانه لو كان يشك في ذلك لاصبحت حياته بلا معنى ، ثم قال لميرسول متعجبا : هل تريد ان تصبح حياتي بلا معنى؟ .. وكان من رأي ميرسول ان هذا نسيء لا يهيمه ، فما كان من المحقق الا ان وضع الصليب تحت عينيه وهو يصيح بطريقة غير معقولة : اما انا فمسيحي . واني لاقرب من هذا ان يفر لك خطاياك . لماذا لا تستطيع ان تؤمن بانه تعذب من اجلك ؟ وكعادة ميرسول حينما يريد التخلص من شخص يجد صعوبة في الاصفاء اليه ، يظهر بانه يوافق على ما يقول . لكن المحقق لدهشته اعلن انتصاره : رأيت؟ .. رأيت؟ .. ألا يعني هذا انك تؤمن به وانك ستفوض امرك اليه ؟ لكن ميرسول قال له : كلا .. مرة اخرى .. فتهاوي فوق مقعده .

ولقد وضع يوسف في موقف مشابه ، ولكن بطريقة مريبة ، فالصول المحقق يستعمل للكلمات والصفات لانتزاع الاعتراف . وعندما ينهيه يوسف الى هذه المعاملة السيئة يعاود الهجوم عليه وهو يزعم : « سيئة ؟ كنت تظن نفسك ذاهبا للسينما .. الاقسام كلها هكذا (وعاد الى مكتبه بينما صوته يعلو مؤكدا) في السن . في الهند كلها هكذا . غاغارين عندما ذهب الى القمر وجد الاقسام هناك .. هكذا .. وهنا اندفع يوسف يقول بعناد :

- غاغارين لم يذهب الى القمر . دار فقط حول الارض .

- يعني انا كذاب ؟

وهب واقفا من جديد ، وخطا نحوه خطوات غاضبة :

- غاغارين ذهب الى القمر . ذهب يا ولد . ذهب .

- لم يذهب .

- ذهب .

- لم يذهب .

- قلت لك ذهب . تكذبي؟ ..

وانهال فوفه ضربا ، ووجد المخبر عبد العليم الذي كان يحاول تهدئة الصول ويحول بينه وبين يوسف ان المتهم « لطول لسانه » لا يستحق سوى الادب . وظل الصول يكرر مع كل ضربة :

- ذهب . ذهب . ذهب . فل ذهب يا ابن ال ... حتى سقط

يوسف فاقد الوعي (ص ١٥ وما بعدها) .

واذا كان الصدق هو اهم جوانب الاتفاق بين ميرسول ويوسف ، فان الاختلاف الجوهرى بينهما يتمثل في كفر ميرسول وايمان يوسف بهذه المؤسسات . لقد احس ميرسول منذ البداية بان قضيته لا تعني احدا ، وبدا له كل شيء يحدث كما لو كان لمبا ، حتى ان احد

الحراس سألته عن شعوره فاجابه « بان مشاهدة قضية شيء ممتع على كل حال » . وبعد صدور الحكم وعلمه بان نائجه قد اصبحت مؤكدة تجسم به عدم تناسب مضحك بين هذا الحكم وبين الاجراءات التي اتبعت منذ لحظة النطق به . فكون الحكم لبي - مثلا - في الساعة الثامنة مساء بدلا من الخامسة . او انه كان من المحتمل ان يكون شيئا آخر ، وان الذين اصنوه رجال يمكن ان يغيروا اعتقادهم كما يغيرون ملابسهم ، وانه صدر باسم فكرة غير واضحة كالشعب الفرنسي او الالمانى او الصيني . كل هذا ازال عن القرار في نظره كثيرا من جديته . وتعد صفع القسيس اندي زاره في زنازته قبل تنفيذ الحكم بالحقيقة كلها : « قلت له انه ليس ابي ، وانه يقف مع الاخرين - ضدي » .. انه واحد منهم ، من هؤلاء الذين نهمهم المؤسسات بالميزات ليدوروا في عجلتها ويحرصوا على استمرارها ، وان الدائرة ستدور عليه فيدان مثله حين تتخلى عنه هذه المؤسسات بعد استهلاكها له .

اما يوسف فانه يتمتع بعذوبة الانتماء ، فيتعاطف مع الاماني القومية ويخضع للقانون وان فويل تمسكه به بالسخرية سواء من الناس او من السلطة ، فعندما قبضت عليه اليد انخسنة للمخبر عبد العليم الذي دس اليد الاخرى لجسمه العملاق في جيبه ، شعر بانتهاك حرمة وانبعث الفضب من اعماقه محتفيا بمبدأ بطلان التفتيش « التفتيش غير (قانوني) هل معك اذن من النيابة ؟ » . هنا ضحبت العربية كلها بالصحك (ص ١٤٢) . وحينما ضربه الصول وذكره بان الضرب ممنوع تهكم الصول ساخرا : « ومن الذي منعه ؟ » . وعندما اخبره بان المانع هو « القانون » تجسد غيظه في كلمة قوية مزودة بوابل من السباب معلنا انكاره لذلك القانون « القانون » . الذي وضع القانون جالس على مكتبه . لم يات هنا . لا يعرف الاشكال التي نتعامل معها » . ثم يشتد هياجه فيعلن طبقية القانون وان احتى بالاخلاق « القانون لم يوضع لامثالك . لا يعرفكم . القانون للشرفاء . لصحايكم » (ص ١٤٩) . لكن يوسف يزداد عنادا ويتشبت بقاعدة من اهم القواعد التي جادت بها الثورة الفرنسية على الانسان : « المتهم بريء الى ان تثبت ادانته » . فتزداد سخرية الصول : « اشكنا اذن » . ويقول المتشبت بالقانون انه سيذكر للنيابة مسألة ضربه ، فيشمر الصول بالاهانة وبمسك رقبته بكلنا يديه حتى يحول عبد العليم بينهما : « تقتله في غضبك . يحسونه علينا واحدا ككل الناس » (ص ١٤٩) .

من هذا الاختلاف بين ميرسول ويوسف يتضح لنا الفرق بين « الغريب » و « المطارد » : الغريب كما صوره ألبير كامو تجسيد لفلسفته التي التقطها كثير من الكتاب والمفكرين في مختلف انحاء العالم مبدعين ومقلدين ، وبنوا عليها عوالمهم الخاصة الاصلية او المنقولة . والمطارد كما صوره زهير الشايب فكر وفن في اصالة بعيدة عن التبعية ، ومعاناة بعيدة عن الزيف بجموعته القصصية الاولى . فالغريب هو ذلك الانسان الذي يحس بان بيئته التي خلفها لم تعد بيته بل سجنه . اما المطارد فانه ذلك الانسان الذي لا يتخاصم مع البيئة لكنها تطارده بكل تسلطها وسطوتها . والمؤسسات الاجتماعية والسياسية تشتبك مع المطارد (بكسر الراء) المتطوعين - ان صح التعبير - في جرم المطاردة ، وعندما يقع الصيد في شباكها فانها تنكر عليه حتى انتماءه ، بل انها تحاول ان تجرده منه ليحل لها التنكيل به . وفي ذلك تفسير لاستنكار الصول احتفاظ يوسف بشعار مناسبة وطنية ، بل وانكار ايمانه بالله « والله العظيم ، والله العظيم . تقسم انت ايضا بالله ؟ تعرفه ؟ تعرفونه يا اولاد الكلاب ؟ تعرفونه يا مجرمون ؟ » (ص ١٤٨) . وهذه المؤسسات لا تحترم حتى قوانينها ، فهي قد وضعتها لحمايتها وليس لاقرار العدالة . لايجاد مير وجودها وتعلمه للمحافظة على مصالحها ، لا للمحافظة على حرية الانسان واستتباب امته ، او كانما وضعتها لتتمتع - في شذوذ مبالغ فيه - بحرقها .

اذا ما وعينا هذا الفارق بين الغريب والمطارد وعدنا الى المقارنة بين ميرسول ويوسف ونحسن مزودون بهذا الزاد فسوف نصطدم

بالنتيجة الواحدة المنبئة بأن الانسحاق والضياع هو قدر الانسان سواء كان على وعي بعيشية الحياة كيمرسول ، او غفل عن عيشيتها كيوستف . ونظرة الى أدلة ادانة يوسف تؤكد هذه النتيجة . فيوسف هو المجرم في نظر السلطة والناس : لانه خاف عندما تحدث المحصل عن الذهاب الى التمس ، ولانه أصر على اعطاء الكمساري الجنيه وادعى عدم وجود فكة معه ، رغم حملة للقطعة الفضية . ولانه حاول الفاء الجنيه من النافذة حينما كشف له المحصل زيفه ، ولانه حاول النزول في منتصف الخط رغم ان تذكركه كانت لنهايته .

ان الفنان الذي يحمل العالم بين جنبه يشارك مشاركة فعالة في الحركة الشاملة للكون وتاريخه . وهذه المشاركة - كما يقول روجيه غارودي - تعني في آن واحد ان يكون مرآة للكون ومساهما في حركته . ولقد استطاع زهير الشايب في مجموعته الاولى « المطاردون » ان يقرأ القانون الاساسي لعصره ، وان يقدم اجابات كاشفة على قضايا الانسان التي يطرحها العصر على الانسان ، وذلك حينما اوقع ابطاله الابرياء في شرك المطاردين الشرسة بيئته مفايرة لبئسهم : بيئته ينطلق كل منهم اليها من وراء الغيب كتطمعه الى الجنة المفقودة التي فرسها الرب الاله لعباده ذات يوم في شرق عدن ، والتي تحولت حياته كلها منذ اخراجه منها الى لحظة انتظار لاجلها ، حتى اذا ما دخلها فاردته وسجنته وأهدرت آدميته بالتعذيب الجسماني والنفسي . بل وسفحت دمه مع انعدام المبرر على قارعة طريق اجرد . ولقد بدأ زهير مسيرته بوضع يده على تحفة خصبة نابضة بالحياة ، هي اللحظة التي تظا فيها قدم القروي القاهرة لأول مرة ، كما في قصص : « الغريب » و « المطاردون » و « القضية » . وهي لحظة - كما نرى - حاسمة وحرجة هداها اليها حسه الفني ليظل يحلبضرعها المدرار بحساسية مرهفة وعين يقظة تتعقب المرئيات بصبر جميل حتى يمتلئ الوعاء ... وعأونا .

ومدينته ليست مدينة صغيرة متاخمة للريف ، وليست عاصمة من عواصم الممتثلة في مراكز الاقاليم مهما كبرت . انها العاصمة دائما كرمز لاقصى ما امكن للحضارة ان تعطي . وهو ينتزع انسانه من حضن الطبيعة الى قمة الحضارة ليعمق احساسه بالقربية . وانسانه لا ينظر الى الحضارة بفضب وانما بانهار . لا يعيش العيش واللاجدوى ... وانما البراءة والتهارة . لكن الاحداث التي تطحنه في ضراوة تلعن انه كان وسيظل مطاردا ايذا .. متربصا به دائما ، لا يكاد يفلت من حبال الاخرين الا ليقع فيها من جديد ، وكأنها صخرة سيزيف الذي فرض عليه ان يحملها على ظهره ، لكن الفرق بينه وبين سيزيف هو ان سيزيف كان على دراية تامة بحكم الآلهة ، اما هو فلا يمي ماساته ، فيظل متشبشا بارضها ، مؤمنا بمؤسساتها وما تسنه من تشاريع ، متعاطفا مع امانيتها القومية ومعتزا بايامها الوطنية .

وتتيم هذا الانسان بالمدينة ، لا يمنعه من الحذر منها ، ذلك الحذر الساذج الذي عرف عن اهل قرانا . فهو لا يتمكن من دخولها الا بعد ان تكون الفكرة الشائعة عنها .. عن ساكنيها وأخلاقها قد نضجت في ذهنه . وهي فكرة - كما نعلم - ليست في صالحها ، تنفيذها مسامرات القرية عما شاهدوه هم او ذووهم من احداث تقف وقفة طويلة عند النصايين والنشاليين الذين يسرقون الكحل من العين .. وعند النساء الداعرات ومغامرات الغرام السهل .. وعند أهلها الذين لا يعرفون بعضهم البعض ، ولا يردون السلام الا عند وجود المصلحة . واذا كان لصوصها من عسوامل الترهيب ، فان نساءها من عوامل الترهيب . ولقد أعد ابطال المجموعة العدة لكل شيء كي لا يقبوا او يخذلوا ورأس العدة مخافة الناس والبعد عنهم .

فيظل « الغريب » لا يركب الاوتوبيس الا بعد ركوب الجميع . ويختار من الاماكن اكثرها بعدا عن الزحمة ، واذا وقف بالعربة فانسه يحكم اقفال سترته ، ويمسك بيده حديد المقاعد خشية اختلال توازنه من جهة ، وحماية لجيوبه من جهة اخرى . بل انه يتحاشى سؤال الناس

عن الجهة التي يقصدها حتى لا يعرفوا انه غريب فيقع ضحية النصايين . ولقد وجد في هؤلاء اللصوص مبردا يداوي به اخفاقه ، فعندما يفنقد في نفسه الجراة - كاهل القاهرة - عن ملاحقة الفتيات ، او عندما يتدخل سبب خارجي يوقف الملاحقة ، يقنع نفسه بان الفتاة الجبيلة الايقنة التي بهرتسه ليست سوى « نشالة تفري الناس بمظهرها » (ص ٥) . وعندما يشعر بالتضاؤل بجوار اهل المدينة لان ملايسه التي لا تجاريتها ملابس اهل القرية تبدو بالمدينة خشنة قديمة ، وحذاؤه التجديد اللامع يفقد بريقه ، يحاول تخفي اشعوره بالدونية بالافناع الوشهي بان اللص واحد منهم فتنهوى بذلك اصنامهم .

لكن المدينة تصر على تذكركه بفرته مع كل خطوة يخطها ، او تصرف يصدر عنه ، فالبيع في المحلات له نظام لا يعيه ، وحتى السير في الطرقات . واهل المدينة لا يتروكونه وشأنه ، بل يصرون - من باب التنذر غالبا - على تذكركه بقرينه فيتفاهم احساسه بالقربية ويزداد تمسكا بالقربية واخلافها كما في قصة « القضية » كوسيلة لتتهدى ، لكنه لا يفقد حبه للمدينة ، ويحاول ابهاج نفسه بمفرياتنا . وأشهى مفرياتنا نساؤها . فليس وراءهن ، ولتحدد خطواتهن موقع خطواته . يقول سارتر في احدي ملاحظاته : « ان المتسكع يجد منظر الشارع محببا لان المارة المنهمكين ، المنظفين على هومهم ، الركنين افكارهم على اعمالهم لا يعيرونه ادنى اهتمام ، لكن يكفي ان يرفح احد هؤلاء المارة رأسه على حين غرة حتى يصبح المراقب مراقبا ، والمطاردا مطاردا » .

ولقد فكر « الغريب » في أمر هذه المطاردة لكن المدينة لفتته على التو اهم مبادئها : اللامبالاة . فلا احد يعرفه هنا . لكن لامبالاته التي شجبت ملاحظة سارتر لم تحمه من الاكتئاب : « لا أحد يعرفه هنا ، لذا فلا حظ له في هذا الميدان » (ص ١٢) . والمدينة لا تتركه لاكتسابه ولا مبالاته . انها « نداة » العصر . وهي ككل « نداة » لا تتسرك ضحيتها الا بعد ان تفرقه في بحرنا .. تذيبه كلية في هذا البحر حتى يتحول الى قطرة تدخل في تكوينه لكن تبخرها لا ينقص مائه . ذرة من تراب .. حبة رمل مهملة في صحراء شاسعة .. رقم من ملايين الأرقام التي تضمها دفاتر مكاتب السجلات المدنية ، لذلك فان المدينة لم تسلبه تقوده ، وانما سلبت بطاقته الشخصية لتريه انه ليس الا رقما ان ضاع ضاع « وليست هي التي ضاعت .. ولكن انا .. » (ص ٢٤) وها هو الشاويش يقول له : « هات بطاقة مكتوب فيها انك ملك لقوم تقول لك يا مولانا العظيم » (ص ٢٠) . لقد كان يسخر من الذين طالبوه باستخراج بطاقة « ما معنى ان يحرر ورقة يكتب فيها اسمه ومهنته وموطن ميلاده .. ثم يلصق صورة له .. ليعرفه الناس .. ومن من الناس هناك لا يعرفه ؟ .. » (ص ٢٣) . وها هو يواجه بمن يشككه في اسمه .. في نفسه « تلك اول مرة يجد فيها اسمه منفصلا عن ذاته .. عن وجوده ، وعلى الرغم من ان هذا السؤال لم يوجه له من قبل ، ولم يواجه به هو نفسه ، الا انه كان يدرك كأم لا يقبل الجدل او النقاش ، ان اسمه جزء منه . من مكوناته . بل ان اسمه هو وجوده . فمن يشك اذن في وجوده ؟ كان يهيا له ان اسمه مرسوم على كل ملامحه . على كل اعضائه . كان يخيل له ان اظافره وشعر رأسه وأصابع اطرافه ، ولامح وجهه ، بل وملابسه وعمله .. تنطق جميعها باسمه فعره الناس دون سؤال .. » (ص ٢٢) .

رغم هذا الدرس القاسي الذي تلقاه صاحبنا الريفي في اول زيارة له للمدينة ، فقد استجاب لنداءاتها مرة اخرى وعاد اليها في قصة « المطاردون » وقد عقد العزم على الاستقرار فيها . لقد جاء اليها هذه المرة وفي جيبه توصية بتشغيله موجهة لاحد بكواتها من والده الذي يعيش بالقرية . الا انه لا يتمكن من توصيل التوصية لان بواب العمارة يشك في امره فيجري اعوانه خلفه وهم يصبحون : حرامي .. حرامي .. وتتبعهم المدينة كلها حتى يسقط على الأرض مقضيا عليه او يكاد . ومع ذلك فانه يستجيب لنداءاتها مرة اخرى ويعود اليها

في قصة « انفضية » اما بشخصه ان لم يكن قضي عليه نهائيا ، واما بتسييه أو فريته ، وقد حصل بالفعل على عمل بها ، ولهذا فأنسه يحاول تجنب المشاكل وهو لا يزال في فترة الاختبار - رغم تندر زملانه عليه . هذا أنتندر الذي يزيد تشبها بجسوره واصرادا - في نفس الوقت - على المحافظة على الوظيفة . واذا جاز لنا ان نتتبع تطور البطل بعد « انفضية » فاننا نكاد نجزم بانه سوف يتحول من حالة « المطارد » الى حالة « اقريب » اذا ما استطاع ان ينفذ الى ما وراء الاحداث الطاحنة ، ويضع يده على البذور الفاسدة التي كشفها ابيير كامو .

اذا نأه هو شأن صاحبنا بالمدينة ، فماذا كان شأنه بالقرية ؟ . ان الاجابه بحكم علينا العودة الى القرية ، ولقد منحنا المؤلف هذه الفرصة العملية حين ضم لهذه المجموعة قصة « الزيارة » (١٩٦٥) . انها احدى القصص التي نعر بصدق وشفافية عن حقيقة الوضع في الريف . وبطل هذه القصة هو الخفير مجاهد عبد السميع راضي . ولقد حمل اؤنث اسمه بصفاته ، فهو مجاهد حقيقي سواء بالمعنى الواسع العام للمجاهدة في الحياة ، او بحكم اخلاصه في عمله وتفانيه في تتبع اللصوص والقتلة ، وهو مطيع لا يني عن تنفيذ اوامر رؤسائه وعلى اتفان على واجبات الوظيفة حتى من الناحية الظهرية . وهو راض ، اذا تمرد مرة على واقعه فانه لا يملك غير الحلم سواء حلم هو أو آمن بأحلام الآخرين « زوجته هي الاخرى بنت حلال منامها لا يخيب . رأت المنام نسه ثلاث ليال متتالية . وسط دارهم مليء بكيزان الذرة الخضراء . كناكيت لا حصر لها تملأ البيت . اللون الاخضر في المنام خير ، وانكناكيت بركة لا حد لها » . واليوم تجيء فرصته لتحقيق حلمه ، فائتخافظ سوف يمر بالقرية ، ولقد خرجت القرية كلها لمشاهدة هذا المرور العابر ، واوكل حفظ النظام بجزء من الطريق اليه . ليست المشاهدة هي هم مجاهد ، بل ولم يكن حفظ النظام هو همه الاول ، ان تحقيق حلمه هو ما تصبو اليه نفسه ، ولهذا فقد اصلح من حبال حدائه ، وكوى جلبابه ، ولع بتدقيته ونحاسه ليدته ، ووقف وقفة انتباه لا يتفنها غيره من الخفراء ، وسوف يشاهد المحافظ هذا كله ، وسوف يلحظ حفظ النظام بمنطقته فيتحقق حلمه . لكن مرور المحافظ كان خاطئا حتى ان مجاهد نفسه لم يره ، مرت ست عربات قيل انه كان باحداها .

لقد كان المحافظ في نظره هو القدرة العادلة التي يسعى طول عمره للوصول اليها لتحقيق حلمه . واذا نظرنا الى اماله التي يحلم بها فسندجها لا تملو الاحتياجات الضرورية : ان يمالج ابنه المريض ، وان يزداد مرتبه جنيا . بل انه حتى في حالة نمو الحلم التلقائي الذي يصل به الى ذروة الخيال ، لنحظ ان هذه الذروة ذاتها ضرورية وان كانت مكافاة كبيرة في نظره ... عشرة او خمسة عشر جنيا . الا ان الاحلام لا تحد ، وها هو يصل باحلامه الى مرحلة الترف فيحلم بصورة مع المحافظ تشر بالجراند فيعرفه الناس بالقاهرة . اذا ما استثنينا هذا الترف فاننا سنجد ان مجاهد لا يطلب غير حقه ، غير مقابل جهده واخلاصه . لكن القوة غير المنظورة المثلة في المحافظ لا تعي به ولا تضعه في حسابها كما يتصور ، وينصور غيره من القهورين الذين يحلمون ببها شكايهم واحلامهم . وليست هذه القوة وحدها هي التي تلمظ مجاهد حقه ، فالاطفال يسخرون منه ، والاهالي يتندرون عليه ، حتى صديقه « الشحات » الذي لولاه لسرقت بقراته . ونحسب ان ما يفريهم بالتندر عليه هو اخلاصه لعمله والشعور باهميته في بلدة تعرف قيمة الخفير ، وان جاءت سخريه الصبية غير مبررة وسط تقريره الذي قدمه في بداية القصة عن شخصية الخفير .

رغم الخوف والشك والتحركات الضالة وسيطرة المؤسسات على

مقدرات الانسان . رغم كل هذه الامور التي آجادت المجموعة تصويرها ، فان كاتينا ما زال يؤمن بالحياة ، وينضح ذلك من هبوب العاصفة التي تصفع وجوه المهومين السائمين الضجرين الجالسين على المقهى في قصة « اوراق الخريف » (١٩٦٤) . انهم ينحنون لها كأعواد القمح الهشة ، حتى اذا ما حاولوا - بعد هدوء العاصفة - رفع وجوههم المنكفئة مرة اخرى للعودة الى ما كانوا عليه « لمحاو فتى وسيما تتعلق بذراعه فتاة .. كانا يتخذان في خطوات رشيقة طريقتما في الشارع ، بنفس الاتجاه الذي انخذته العاصفة منذ قليل ... وكف الجميع عن التنفس .. فقد كانت الفتاة بالفعل جميلة .. جميلة ، حتى ليبدو وكان العاصفة قد هبت خصيصا لتتكش لها الطريق .. » (ص ٤٠) .

ان موقف المؤلف في هذه القصة، بل وضم هذه القصة للمجموعة، يذكرنا مرة اخرى بموقف ميرسول الذي أحب الحياة رغم ايمانه بعشيتها، وحاول اقتناص اللحظات السعيدة بشتى الطرق . انه لا ينسى هذه اللحظات ، ففي اناء خروجه من المحكمة لركوب عربة السجن « شممت للحظة قصيرة روائح امسيات الصيف وتمتعت عيني بالوانها - وفي ظلام سجنني المتحرك تناهت الى آذني ، وانا متعب مكثود ، الاصوات المألوفة في تلك المدينة التي كنت احبها في الساعة نفسها التي كنت انعم فيها بالسرور والغبطة حينما كنت حرا طليقا . وكانت صيحات بائعي الصحف في الفضاء المنسج وشقشقة الصافير الاخيرة في الميدان ونداء باعة السنوتوش ، وازيز عربات الترام في المنحنيات المرتفعة بالمدينة ، ووهج السماء قبل ان يرخي الليل سدوله على الميناء - كل هذا كان بمثابة علامات للطريق يمكن ان يهتدي بها الاعمى ، وكنت اعرفها جيدا قبل ان ادخل السجن . نعم .. كانت هذه هي الساعة التي كنت اشعر في خلالها ، منذ زمن اصبح يبدو لي بعيدا جدا ، بالغبطة والهناء ، وكنت حينئذ انام نوما خفيفا من غير احلام » لكنه مع كل هذا لا يففل عن ان الدروب المألوفة المرتسمة في سماء الصيف يمكن ان تؤدي الى السجن كما تؤدي الى النوم البريء .

ان هذا الحب المشترك للحياة بين « القريب » و « المطارد » ، يجعلنا ننظر في اعجاب مضرب بالعجب ، واكبار مفلل بالدهشة لذلك الانسان المطحون بين رحي القرية والمطاردة .

محمد محمود عبد الرازق

القاهرة

مكتبة انطوان

(فرع شارع الامير بشير)

تقدم للطلاب

جميع الكتب المدرسية

العربية والفرنسية